فَصلٌ في ذِكْر هُود وَقَوْم عَاد[1]

قالوا: ذكر الله هوداً في ستة مواضع، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾[الأحقاف: ٢١] الأخ في القرآن العزيز على وجوه:

أحدها: الأخ من الأم والأب أو من أحدهما، ومنه قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾[المائدة: ٣٠].

والثاني: الأخ من القبيلة ومنه ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾[الأحقاف: ٢١] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

والثالث: الأخ في المتابعة: ﴿كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[الإسراء: ٢٧].

والرابع: الصَّاحب ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾[ص: ٢٣].

والخامس: الأخ في الدين ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران: ١٠٣].

والسادس: الإخاء في المودَّة ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

وأخو عاد: هو هود عليه السَّلام.

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قاله قتادة.

وحكاه جدي رحمه الله في «التبصرة»[2]، ولم يحقق القول في الخلود، واختلفوا فيه على ثلاثة أقوال:

أحدها: إنه الخلود بخاء معجمة مع تشديد اللام.

والثاني: بالحاء المهملة.

---

(١) انظر قصته: في «تاريخ الطبري» ١/ ٢١٦، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٣١، ومروج الذهب ٣/ ٧٨، و«عرائس المجالس» ص ٦٢، و«المنتظم» ١/ ٢٥٢، و«التبصرة» ١/ ٧٧، و«الكامل» ١/ ٨٥، و«البداية والنهاية» ١/ ١٢٠.

(٢) «التبصرة» ١/ ٧٨.

والثالث: بالجيم المكسورة واللام المفتوحة.

القول الثاني: أنه هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قاله مجاهد، وحكاه جدي أيضاً في «التبصرة»[١].

والثالث: أنه هود بن عبد الله بن رياح بن حارث بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، حكاه ابن قتيبة[٢].

وقوم عاد هؤلاء هم أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام.

وقال ابن الكلبي: لم يكن بين نوح وإبراهيم من الأنبياء إلَّا هود وصالح.

وقال هشام بن محمد: كان هود أشبه ولد آدم بآدم ما خلا يوسف عليه السلام، وكان آدم حسن الوجه.

وقال مقاتل: بين هود ونوح ست مئة سنة، وقيل: ثمان مئة سنة، وهود من العرب، وكذا صالح وشعيب ومحمد ﷺ.

وقال ابن عباس: بُعث هود إلى عاد الأولى، فلمَّا هلكوا جاءت عاد الأخرى، ورؤساؤهم شدَّاد وشديد.

وقال قتادة: بعث الله إليهم نبيّاً قبل هود، فوصف لهم الجنَّة، فقالوا: نحن نعمل جنَّة، فعملوا الجنّة المعروفة بشدّاد بن عاد فأهلكهم الله قبل أن يصلوا إليها، وسنذكر القصَّة.

قال مقاتل: في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف: ٦٥] قال: أخوهم في النسب لا في الدين.

والأحقاف: الرِّمال، واحدها حِقْف.

واختلفوا في أي موضع هي؟ على أقوال:

أحدها: أنها بالشِّحر باليمن على ساحل البحر، قاله مجاهد.

---

(١) لم نقف عليه في «التبصرة» وذكره في «المنتظم» ١/ ٢٥٢.

(٢) «المعارف» ٢٨.

والثاني: بين عُمان ومَهرة وصَحار.

الثالث: بالدَّهْناء والدَّو وعالج ويَبرين، قاله ابن عبّاس. وقال: والأحقاف وادٍ بين عمان ومهرة، وإليه ينسب المهاري، يقال: إبل مهرية ومهاري قال: وكانوا من قبيلة إرم.

وقال الضحَّاك: الأحقاف جبل بالشام.

وقال مجاهد[١]: هي جبال حِسْمَى وأرضها، والأوّل أصح.

وقال مقاتل: وكان ملكهم عاد يعبد القمر، وطال عمره فرأى من صلبه أربعة آلاف ولد، وتزوج ألف امرأة، وهو أوّل من ملك الأرض بعد نوح.

وكان عاد محسناً إلى الناس يقري الأضياف، ويحفظ السبل، ويرحم المساكين ورأى العاشر من ولده، وعاش ألفاً ومئتي سنة، ثم مات، فانتقل الملك إلى أكبر ولده وهو شديد بن عاد، فأقام خمس مئة وثمانين سنة ثم مات، فانتقل الملك إلى أخيه شدَّاد بن عاد وهو بنى إرم ذات العماد وملك تسع مئة سنة[٢]، وسنذكره.

وقال ابن قتيبة: كانت عاد ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الأحقاف وبلادها، وكانت ديارهم بالدَّوِّ والدَّهْناء وعالج ويَبرين ووَبَار إلى حَضْرَمَوت، وكانت أخصبَ البلاد، فلمّا سخط الله عليهم جعلها مفاوز وقفاراً[٣].

وكانوا قد ملكوا الأرض لقوَّتهم، وافتخروا، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وكان الرجل منهم لا يحتلم حتى يبلغ مئتي سنة. فلمَّا كثر طغيانهم بعث الله إليهم هوداً فقال: يا قوم اعبدوا الله ووحِّدوه، يا قوم لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، أي: جُعْلاً.

وقال مجاهد: سبب هذا أن الأمم كانت تقول للرُّسل: ما تريدون إلا أن تحكموا في أموالنا، فتقول لهم الرّسل كما قال هو. ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[هود: ٤٠].

---

(١) من هنا بدأ خرم في (ب).

(٢) انظر «مروج الذهب» ٣/ ٨٠، ٨١.

(٣) «المعارف» ص ٢٨.

وكان طول الرجل منهم خمس مئة ذراع وإلى عشرة أذرع[١].

فلمَّا عصوا منعهم الله القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم حتى هلكوا من الجدب، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى مكة من يستسقي لنا، وكان لهم ثلاثة أصنام يعبدونها يقال لها: صمود وصداء والهباء ـ قال قتادة: وكان يقال لملكهم الخلجان، وكانوا مع هذا يعظِّمون الكعبة ويستسقون عندها ـ فبعثوا سبعين رجلاً فيهم جماعة من أعيانهم: قيل، ولقيم، وجلهمة، ولقمان بن عاد، ومرثد بن سعد، وكان يكتم إيمانه، فنزلوا على بكر بن معاوية، وكان خارج الحرم فأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، وبكر بن معاوية من العمالقة من أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وقيل: ابن عمليق بن سام ـ وقد ذكرنا الخلاف فيما تقدَّم في ولد سام ـ فأقاموا عنده شهراً يأكلون ويشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ مغنيتان كانتا لبكر ـ فلمَّا طال مقامهم عنده قال: هلك أخوالي وأصهاري ـ يعني الذين بعثوا هؤلاء ـ وهؤلاء أضيافي وما أدري ما أصنع، واستحيى أن يأمرهم بدخول الحرم ليستسقوا، فشكا ذلك إلى قينتيه فقالتا: قل شعراً نغنِّيهم به، فقال: [الوافر]

ألا يا قَيْلُ ويحكَ قُمْ فهينِمْ ... لعلَّ الله يمنحُنا غَماما
فيسقي أرضَ عادٍ إنَّ عاداً ... قد امسَوا ما يُبينون الكَلاما
من العطشِ الشَّديد فليسَ يرجُو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ ... فقد أمسَت نساؤهمُ أيامى
وأنَّ الوحش تأتيهمْ جهاراً ... ولا تخشى لعاديٍّ سِهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتُم ... نهاركمُ وليلكمُ التَّماما
فَقُبِّح وفدكم من وفد قومٍ ... ولا لقُّوا التحيةَ والسَّلاما

فغنتهم الجرادتان به، فلمّا سمعوه قالوا: ويحكم، ادخلوا الحرم فاستسقوا لقومكم فقد هلكوا، فقال مرثد: إنكم والله ما تسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيَّكم

(١) كذا هو في (ل)، ولم نقف على من ذكر هذا القول، اللهم إلا ما ذكره السمعاني في «تفسيره» ٥/ ٣١٢ فقال: وفي القصة أن طول الواحد منهم كان ستمائة ذراع وخمسمائة والأقصر ثلاثمائة ذراع.
وذكر طولهم ابن الجوزي في «التبصرة» ١/ ٧٨ وقال: كان طول الرجل منهم اثني عشر ذراعاً.

سقيتم، فقال جلهمة: احبسوا عنَّا هذا فلا يقدم معنا مكة، فإنه قد اتَّبع دين هود، فحبسوه، فأفلتَ وسبقهم إلى مكَّة قبل أن يدعوا بشيء.

وكان الناس مؤمنهم وكافرهم يستسقون عند البيت، وأظهر إسلامه حينئذ، فقال بكر ابن معاوية يخاطبه: [الوافر]

أبا سعد فإنَّك[1] من قبيل ... ذوِي كرَمٍ وأمُّك من ثمودِ
فإنَّا لن نُطيعَك ما بَقينا ... ولَسنا فاعلِينَ لدى الوُفود
أتأمرنا لنترك دين رفدٍ ... ورملَ وآل صدٍّ والعبود
ونترك دين آباءٍ كرام ... ذوي رأيٍ ونَتْبَع دينَ هُود

رفد ورمل وآل صدّ والعبود كلها قبائل من قوم عاد.

ثم وقفوا عند البيت يستسقون، فقال واحد منهم: اللهمَّ إنَّا لم نجئك لأسير نفاديه، ولا لمريض تشفيه، فإن كنت مسقياً فاسق عاداً ما كنت مسقيه، فنشأت سحابةٌ ونودوا منها: اختاروا لأنفسكم، فقال مرثد: يا ربِّ أعطني صدقاً وبرّاً، فأعطي، وقال لقمان ابن عاد: يا رب أعطني عمراً فاختار عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة، ويأخذ الذكر لقوَّته، حتّى إذا مات أخذ غيره إلى أن مات سبعة أنسر، وسنذكره.

وقال ابن الكلبي: ثم نشأت ثلاث سحائب بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نودي منها: يا قيل اختر لقومك، فقال: أختار السوداء لأنها أكثر ماءً، فقيل لها: اذهبي إلى عاد خليها رماداً رمدداً، لا تدع منهم أحداً. وساقها الله إليهم فخرجت من وادٍ لهم يقال له مغيث، فلمَّا رأوها استبشروا بها وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقال هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأحقاف: ٢٤]. وكان أول من رأى ما فيها امرأة منهم، فصاحت وصعقت، فقيل لها: ما رأيت؟ قالت: ريحاً فيها كشهب النَّار، أمامها رجالٌ يقودونها[2].

---

(١) في (ل): «ألا يا سعد إنك» وما أثبتناه من «تاريخ الطبري» ١/ ٢٢١، وعرائس المجالس ٦٤.

(٢) انظر الأبيات والقصة في «تاريخ الطبري» ١/ ٢١٩ـ٢٢١، وانظر «البدء والتاريخ» ٣/ ٣٢ـ٣٣، و«المنتظم» ١/ ٢٥٣، وقد رد ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٩٨ هذه القصة.

وقال ابن الكلبي[١]: أوَّل ما رأى العذابَ الخَلَجَان ملك القوم، فقال: يا هود ما هؤلاء الذين أراهم في السّحاب مثل البخت؟ فقال: ملائكة العذاب، فقال: أرأيت [إن أسلمت] أيعيذني [ربّك] منهم؟ قال: نعم، هؤلاء جندي، ولو فعلَ ما رضيتُ.

وفي رواية: أنه لما خرجت الريح من الوادي قال الخلجان لرهط معه: تعالوا نردَّها، فجاؤوا، فجعلت الرِّيح تدخل تحت الواحد فترميه فتدق عنقه، فمال الخلجان إلى جبلٍ فهزَّه فاهتزَّ في يده، فقال له هود: أسلم، فلم يفعل، فهلك فيمن هلك، فسخَّرها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي متتابعة ابتدأت غدوة الأربعاء وسكنت في آخر اليوم الثامن.

واعتزل[٢] هود ومن معه من المؤمنين فلا يصيبهم منها إلا ما يلين الجلود ويلذُّ النُّفوس.

وقال مجاهد: وكان قد آمن معه أربعة آلاف وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾[هود:٥٨] وكانت الريح تقلع الشجر وتهدم البيوت، ومن لم يكن في بيته منهم أهلكته في البراري والجبال، وكانت ترفع الظعينة بين السّماء والأرض حتى ترى كأنّها جرادة، وترميهم بالحجارة فتدق أعناقهم.

وقال ابن عباس: دخلوا البيوت وأغلقوا أبوابها فجاءت الريح ففتحت الأبواب، وسَفَت عليهم الرَّمل، فبقوا تحته سبع ليالٍ وثمانية أيام، فكان يسمع أنينهم في الرمل، وماتوا[٣].

وقيل: معنى ﴿حُسُومًا﴾ حسمت كل شيء، أي: قطعته وأتلفته.

وقال مقاتل: دخلت عجوز سرباً، فدخلت الريح خلفها فقتلتها، قال: فذلك معنى تسمية العرب هذه الأيام: بأيَّام العجوز.

وقال مجاهد: إنما سميت أيام العجوز لأنها في آخر الشتاء، وقد ذكرناه.

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٢٤، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٢) هنا ينتهي الخرم في (ب) المشار إليه قريباً.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «التبصرة» ١/ ٨٠.

وقال ابن مسعود: لم تخرج الريح قط إلَّا بمكيال، إلا في قصة عاد فإنَّها عصت على الخُزان فغلبتهم فلم يعلموا مقدار مكيالها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[الحاقة:٦] والصرصر: ذات الصوت الشديد ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[الحاقة:٧] ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾[القمر:٢٠] أي: من أصله.

فإن قيل: فما معنى إهلاكهم بالريح؟ فالجواب: إنَّما أهلك ذلك الخلق العظيم بالريح التي هي ألطف الأشياء لتظهر آثار القدرة، كما أمات الخلق بنفخةٍ ويحييهم بنفخة.

وذكر جدّي رحمه الله قصتهم بألفاظ مسجوعة، ثم قال: غلبهم الهوى فامتدَّ المقصور.

فإن قيل: فما معنى ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود:٥٩] ولم يبعث إليهم سوى هود.

فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه بُعث إليهم نبيٌّ كما ذكرنا، والثاني: لما كذَّبوا بما جاء به هود فكأنَّهم كذبوا بما جاء من قبله، لأنَّ الأنبياء أولادُ عَلَّات أمهاتهم شتى، والأب واحد[١].

قال مجاهد: لما هلكوا أرسل عليهم طيوراً سوداً فنقلتهم، فألقتهم في البحر.

وقال ابن الكلبي: ولمّا بلغ مرثد بن سعد هلاكهم قال[٢]: [من الوافر]

عصَت عادٌ رسولَهمُ فأضحَوا ... عظاماً ما تبكهم السَّماء[٣]
وسُيِّر وفدُهُمْ شَهْراً ليُسْقَوا ... فأردَفَهمْ معَ العطشِ العَمَاءُ
بكفرهمُ بربهمُ جِهاراً ... على آثار عادِهِمُ العَفَاءُ
لهم صنمٌ يقالُ له صُمودا ... يُقابِلُه صُداءٌ والهَبَاءُ
ألا قبح الإلهُ حُلومَ عادٍ ... وإنَّ ديارَهمْ قفرٌ هواءُ

(١) أخرج البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد».

(٢) الأبيات عند الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٢٣، والثعلبي في «عرائس المجالس» ص ٦٧.

(٣) جاء في «تاريخ الطبري» و«عرائس المجالس»: «عطاشاً ما تبلهم السماء»، وهو الصواب.

قصة شدَّاد بن عاد وبنائه الجنَّة

اختلفوا: هل كان قبل هود أو في أيام هود؟ على قولين.

وهو شدَّاد بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح، وفيه يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٦ـ٨] الآية.

واختلفوا في إرم على أقوال:

أحدها: أنها قبيلة من قوم عاد كان فيهم الملك، قاله مقاتل.

والثاني: إنها اسم الجنَّة التي بناها شدَّاد بن عاد، قاله مجاهد.

والثالث: دمشق، قاله عكرمة.

والرابع: الإسكندريَّة، قاله القرظي.

والخامس: أنَّها آمِد، قاله مقاتل. والقول الأوَّل أظهر[١].

قال سعيد بن المسيَّب: كانت منازلهم باليمن ومَهَرَة، وكانوا أصحاب عُمُد وخيام، وكانوا جبابرة قد خصُّوا بالطُّول ـ ويقال للطويل مُعَمدٌ ـ وكان الرجل منهم يحمل الصخرة على رأسه فيقتل بها جماعة، وكانوا يطلبون المرعى فينتقلون من مكان إلى مكان.

وقال ابن الكلبي: إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل السّواد والجزيرة، وكان مسكنهم بوادي القرى.

وقال الجوهري: وقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ من لم يُضف[٢] جعل إرم اسمه ولم يصرفه لأنه جعل عاداً اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة، وجعله بدلاً منه. ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفْ جعله اسم أمهم أو اسم بلد[٣].

وحكى أبو إسحاق الثعلبي عن الضحاك أنه قرأ ﴿أرم ذات العماد﴾ بفتح الألف

---

(١) انظر الأقوال مفصلة في «زاد المسير» ٩/ ١٠٩ـ١١٠، و«التبصرة» ٢/ ١٣٤.

(٢) في النسخ: «يصرف» والمثبت من «الصحاح».

(٣) «الصحاح»: (أرم).

والراء، والأَرم: الهلاك يقال: أَرَم بنو فلان أي: هلكوا، وهي رواية العَوفي عن ابن عباس.

قال: والصَّواب أنّها اسم قبيلة أو بلدة فلذلك لم تصرف، ولو كان بمعنى أهلكهم وجعلهم رميماً لصرف.

قلت: ولعامَّة القراء على الوقف على إرم[١]، فمن أراد القبيلة وصف قَوْمَها بالطول والبطش والقوّة والشدَّة.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن المقدام بن معدي كَرِب عن النبي ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال: «كان الرجل منهم يأتي الصخرة فيحملها على الحيِّ فيهلكهم»[٢].

قال الكلبي: كان طول الرجل منهم أربع مئة ذراع.

وروي عن ابن عباس أنه قال: كانوا أهل عمد وخيام ينتجعون الكلأ والعشب، وينتقلون إلى الخصب حيث كان في أيّام الرَّبيع، ثم يرجعون إلى منازلهم إذا هاج العود، ومن أراد المدينة.

قال جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة»: حدّثنا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف بإسناده عن وهب بن منبّه عن عبد الله بن قلابة، وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن وهب بن منبّه عن عبد الله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبل له شردت، فبينا هو في صحاري عدن أَبْيَن في تلك الفلوات إذ وقع على مدينة عليها حصن، وحول الحصن قصور كثيرة، فلما دنا منها ظنَّ أنَّ فيها أحداً يسأله عن إبله، فلم يرَ خارجاً ولا داخلاً، فنزل عن ناقته وعقلها وسلَّ سيفه، ودخل باب الحصن، فإذا هو ببابين عظيمين من ذهب مرصَّعين بالجواهر واليواقيت ـ أو بالياقوت الأحمر ـ فلمَّا رأى ذلك دُهش وتحيَّر وفتح أحد البابين فإذا هو بمدينة لم يُر في الدنيا مثلها، وفيها قصور شواهق، عليها

(١) بل الوقف هنا ليس بجيد، قال الداني في «المكتفى» ص ٦١٨: وقال نافع: «بعادٍ إرمَ» تام، وقال الكسائي: هو وقف جيد، وليس بتام ولا كاف لأن «إرم» بدل من «عاد» و«ذات العماد» نعت له، وانظر «منار الهدى» ص ٣٠٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (كما في تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠٧)، وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» (١٩٢٥٤).

قِباب الذهب والفضة مرصعة بالجواهر واليواقيت، مفروشة كلها باللؤلؤ وبنادق المسك، وترابها الزعفران، ونظر إلى الأزقَّة وإذا فيها الشجر مثمر، وتحته أنهار مطردة تجري في قنوات من فضة، فقال الرجل: إنَّ هذه هي الجنَّة، فحمل من لؤلؤها وياقوتها ومسكها ما قدر عليه وخرج، فركب راحلته وعاد إلى اليمن، فأظهر ما كان أخذه، وبلغ معاوية بن أبي سفيان ذلك فأرسل إليه، فلمَّا دخل عليه قصَّ عليه القصَّة، فأنكر معاوية ابن أبي سفيان ذلك وأرسل إلى كعب الأحبار، فلما حضر قال له: يا أبا إسحاق، هل تعرف في الدُّنيا مدينة من ذهب وفضَّة ـ وذكرها على الوصف ـ فقال: نعم أنا أخبرك بها وبمن بناها، إنما بناها شدَّاد بن عاد، واسمها إرم ذات العماد التي وصفها الله عزَّ وجلَّ في كتابه، فقال معاوية[1]: فحدِّثني حديثها، فقال: إن عاداً الأول كان له ابنان: شديد وشدَّاد، وهلك عاد وملك شديد، فبقي زماناً ثم مات، وملك شدَّاد ودانت له الأمم وملك الدنيا، وكان مولعاً بقراءة الكتب، كلما مرَّ بذكر الجنَّة دعته نفسه إلى بناء مثلها، عتوَّاً على الله، فأمر ببناء إرم ذات العماد، وأَمَّر على بنائها مئة قهرمان، مع كل قهرمان ألف من الأعوان، ثم قال: انطلقوا إلى أطيب فلاة في الأرض وأوسعها فاعملوا لي مدينة من ذهب وفضة وزبرجد ولؤلؤ، تحتها أعمدة من زبرجد، وفوق القصور غرف، ومن فوق الغرف غرف، واغرسوا تحت القصور وفي أزقَّتها فنون الثمار، وأَجروا تحتها الأنهار، فإني أسمع في الكتب صفة الجنَّة، وأريد أن يكون لي مثلها، قالوا: ومن أين لنا الذهب والفضَّة والجواهر؟ فكتب إلى ملوك الدنيا ـ وكان تحت يده مائتان وستون ملكاً ـ فأمر أن يحملوا إليه من الجواهر واليواقيت والذهب والفضة ما يقدرون عليه، ففعلوا فخرج القهارمة وتبدَّدوا في الأرض ليتخيَّروا أطيبَ مكان، فإذا هم بأرض طيبة الهواء، خاليةٍ عن الجبال والتلال، وفيها أنهار مطَّردة، وتربتها صحيحة، فقالوا: هذه صفة الأرض التي أمر الملك ببناء المدينة فيها، فوضعوا أساسها من الجزع اليماني، وبنوها بالذهب والفضة، وأجروا مياهها في قنوات الذهب والفضة، وأقاموا في بنائها ثلاث مئة سنة. وعاش شدَّاد تسع مئة سنة، فلمَّا كمل بناؤها كتبوا إليه: قد كملت فما ترى؟ فكتب إليهم: ابنوا عليها حصناً، وابنوا حول الحصن ألف قصر يكون

(١) في (ب): «بعضهم».

في كلِّ قصر وزير من وزرائي، وكان له ألف وزير، وأقام يتجهَّز للنقلة إليها في عشر سنين، وسار إليها بأهله ووزرائه، فلمَّا كان على مسيرة يوم وليلة منها بعث الله تعالى عليه وعلى من كان معه صيحةً من السماء فأهلكتهم جميعاً، ولم يدخل إرم ولا أحد ممن كان معه، ولم يُقْدَر على أحد منهم حتى الساعة. هذه صورة ما حكى جدّي رحمه الله في «التبصرة»[١].

وأما الثعلبي فإنه زاد بعد هذا، وقال: وقال كعب وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال، يخرج في طلب إبل له في تلك الصحاري ـ والرجل عند معاوية جالس ـ فالتفت إليه كعب فقال: هذا والله ذلك الرجل[٢].

وحكى الشعبي عن دَغْفَل الشيباني قال: ثم ملك بعده ولده مَرْثَد بن شدَّاد، وكان أبوه قد خلفه بحَضْرَموت على سلطانه، فأمر بحمل أبيه من تلك المفازة، فحمل إلى حَضْرَموت مطليَّاً بالصَّبِر والكافور، وأمر فحفرت له حفيرة في الجبل مثل المغارة، وجعله على سرير من ذهب، وألقى عليه سبعين حلَّة منسوجة بقضبان الذهب، ووضع عند رأسه لوحاً من ذهب، وكتب عليه بالقلم المسند: [مجزوء الرمل]

اعتبر بي أيُّها المغـ ـرور بالعمرِ المديدِ
أنا شدَّاد بن عادٍ صاحب الحصن العميدِ
وأخو القوَّة والبأ ساء والملك الحَشيدِ
دان أهل الأرض لي من خوف وَعْدِي ووعيدي
وملكت الشرق والغر ب بسلطانٍ شديدِ
وبفضل الملك والعد دة فيه والعديدِ
فأتى هودٌ وكنَّا في ضلالٍ قبل هودِ
فدعانا لو أجبنا ه إلى الأمر الرَّشيدِ
فعصيناه ونادي نا ألا هل من مَحيدِ

(١) «التبصرة» ٢/ ١٣٥ـ١٣٦، و«عرائس المجالس» ص ١٤٥ـ١٤٩.
(٢) «عرائس المجالس» ص ١٤٨ـ١٤٩.

فأتتنا صيحة تهوي من الأفْق البعيدِ
فتوافينا كزرع وسْط بيداءٍ حصيدِ

قلت: والعجب من جدي رحمه الله كيف حكى مثل هذه الحكاية ولم يتبيَّن ما فيها[١]، فإنَّ في إسنادها عبد الله بن لهيعة، وقد ضعَّفه في «الواهية» وقال: كان مدلساً، وتكلَّم فيه الدَّارقطني وغيره.

ثم ذكر فيها معاوية، وأين كعب الأحبار من زمن معاوية؟ وليَ الأمر في سنة إحدى وأربعين وكعب مات في سنة اثنتين وثلاثين. ثم العقول السليمة تأبى مثل هذا، لأنَّ شدَّاد ابن عاد له ألوف السنين، وما كان في العالم من يقف على هذه المدينة إلا ابن قلابة، وكان رجلاً بدويًّا، وكم قد مرَّ بتلك الأرض من ملوك اليمن مثل التَّبابعة وغيرهم.

فصل في وفاة هود

واختلفوا في أي مكان توفي على أقوال:

أحدها: بأرض الشِّحْر من بلاد حضرموت، وقبره ظاهر هناك ينزل عليه النّدى والطلّ في شدّة الحرّ، وموضعه أحرّ الأماكن، وقد ذكره ابن سعد في «الطبقات»[٢].

والثاني: بمكة، لمّا أهلك الله قومه أمره أن ينزل بمكّة بمن معه من المؤمنين، قاله مجاهد.

والثالث: بجامع دمشق بالحائط القبلي[٣]. والأوَّل أظهر.

وعاش هود مئة وخمسين سنة، وحكى الخطيب عن ابن عباس أنه عاش أربع مئة وستين سنة، وكان بينه وبين نوح عليهما السّلام ثمان مئة سنة.

قصة لقمان بن عاد صاحب النسور

قد ذكرنا أنه كان في الوفد[٤]، وسأل الله طول العمر، فأعطاه عمر سبعة أنسر، كان

(١) التبصرة ٢/ ١٣٧، وعرائس المجالس ١٤٩ـ١٥٠.
(٢) في(ل): في حائط القبلة، والمثبت من (ب) و(ط).
(٣) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥٢.
(٤) يعني الوفد الذي خرج من قوم عاد إلى مكة ليستَسقوا لقومهم. انظر الصفحة ٣٤٥ .

يأخذ الفرخ من البيضة حين يخرج، فإذا مات أخذ غيره، فلم يبق غير واحد. قال له ابن أخيه: يا عم، لم يبق من عمرك إلّا عمر هذا النَّسر. فقال لقمان: هذا لُبَد، واللبد بلسانهم الدَّهر. فلمَّا انقضى عمر النسر مات.

وذكر جدي في كتاب «أعمار الأعيان» وقال: لقمان هذا هو الأكبر، وهو ابن عاد ابن عاديا من بقيَّة عاد الأولى، وهو صاحب النسور، بعثته عاد مع الوفد إلى الحرم يستسقون فدعوا وسأل هو البقاء، واختار عمر سبعة أنسر كلما هلك نسر أخذ مكانه آخر، يأخذ النسر وهو فرخ فيربيه إلى أن يموت، فعاش ألفين وأربع مئة ونيفاً وخمسين سنة[١].

قلت: وقد اختلف الناس في عمر النسر، وعامتهم على أنه يعيش خمس مئة سنة، فعلى هذا قد عاش لقمان ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة، ولم يبلغ هذا العمر أحد من بني آدم.

وقيل: إنه عاش ثلاثة آلاف وثمان مئة سنة، لأنه كان له قبل أن يأخذ النسور ثلاث مئة سنة. ولمّا وقع لبد قال له لقمان: انهض فلم يقدر ومات، فمات لقمان. وقد ذكره الجوهري في حرف الدال، فقال: ولبد آخر نسور لقمان. قال: وتزعم العرب أنّ لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها، فلمّا أهلكوا خُيِّر لقمان بين بقاء سبع بعرات سُمر، من أظبٍ عُفْر، في جبل وَعْر، لا يمسها القطر، أو بقاء سبعة أنسر، كلما هلك نسر خلف بعده نسر، فاختار النسور، وكان آخر نسوره يسمى لُبَداً، وقد ذكرته الشعراء قال النابغة: [من البسيط]

أضحَتْ خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

هذه صورة كلام الجوهري[٢].

قصة جرت للقمان

ذكر هشام بن الكلبي عن أبيه قال: كان لقمان مغرىً بحبِّ النِّساء، وكان يتزوَّج

(١) «أعمار الأعيان» ص ١٢٩ .

(٢) «الصحاح»: (لبد)، والنابغة هو الذبياني زياد بن معاوية، والبيت في ديوانه ص ٣١.

المرأة فتخونه، فتزوَّج صغيرة لم تعرف الرجال، فنقر لها مغاراً في جبل، وجعل له سلاسل يصعد إليها فيها، فإذا نزل أزالها، فمرَّ بها رجل من العمالقة فرآها فوقعت في قلبه، فأخبر قومه وقال لأهله: لابدَّ لي منها، فقالوا: ويحك وكيف تصنع؟ فقال: اجمعوا سيوفكم ثم اجعلوني في وسطها وشدُّوها حزمةً ثم أودعوها عنده، ففعلوا وجاؤوا إلى لقمان فقالوا: نريد أن نسافر، ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع. فأطلعَ السيوف إلى المغارة وكانوا قد واعدوه يوماً بعينه يرجعون إليه، فكان لقمان إذا نزل خرج الرَّجل وأتى الجارية، وإذا جاء لقمان عاد إلى مكانه. وجاء الميعاد فجاء القوم وأخذوا السيوف، فلمَّا كان في بعض الأيام نام لقمان على ظهره فرأى في سقف المغارة نخامة، فقال للجارية: من تنخَّم هذه؟ قالت: أنا، قال: فتنخمي، فتنخمت فلم تصلْ إلى السقف، ففطن وقال: من السيوف دُهيت، ثم رمى بالجارية من ذروة الجبل فتقطعت قطعاً، وانحدر مغضباً يطلب القوم، فلقيته ابنةٌ له يقال لها: صحر، فقالت: ما لي أراك يا أبة مغضباً؟ فقال: وأنت أيضاً من النساء، فضربها فقتلها فقالت العرب: ما أذنبت إلا ذنب صحر، فذهبت مثلاً[1].

(١) انظر «الأمثال» لأبي عبيد ص ٢٧٢.